في الأدب النضالي

بقلم حسني سيد لبيب

بعد مأساة ١٩٦٧ المروعة ، تبارى النقاد والادباء في الكتابة عن ماهية الادب النضالي . وارتأى البعض أن التخلف الفكري أحد أسباب النكسة العسكرية . ونفر من هؤلاء الكتاب استحث الادباء الى خلق « أدب نضالي » . ولست هنا في مجال عرض لارائهم المختلفة والحسم فيها برأي ، فمن الصعب أن نحدد اتجاها ما كرأي صائب ونخطىء بقية الاتجاهات أو نفضلها . واذا كان الكتاب قد انطلقوا من ماعون واحد هو « الهزيمة » وشحذوا أقلامهم وخاضوا مجالات متباينة المرمى، وان كانت واضحة الغاية محددة الاتجاه ، فكلها على السواء تنادي بضرورة وجود أدب نضالي ثوري يرتفع الى مستوى المعركة التي تخوضها أمتنا ، وأنها لضرورة حتمية واجبة .

ومن خلال قراءتي لكتاب عن الادب الصهيوني (١) وجدت ان هذا الادب ينبني على دعوىعنصرية ويخدم المخططات الصهيونية . فهل يتوجب على الاديب العربي أن يناهض الادب الصهيوني ويعمل علىخلق أدب عربي عنصري ؟. ان الاجابة على هذا السؤال جد خطيرة ، فمعنى مثل هذا الادب ان ننجرف في تيار الدعاية الرخيصة ونشنها حربا عنصرية في مجال الادب ، بينما الادب أسمى من أن نمسخه بهذه الصورة المشوهة . وليس المقصود من ذلك ان تصمت كل الاقلام عما يكتبه الصهاينة ـ وهذا هو واقعنا اليوم ! ـ فمعنى هذا اننا نهيىء الفرصة كاملة للدعاية الصهيونية في ان تفرز سمومها في الادب الانساني ، وفي تشبيت اصالة فكرها وثقافتها . فتكون الطريق امام الادب الصهيوني ممهدة ومفتوحة ما دام خصمه العربي لا يقارعهبالحجة الدامغة ، ولا يبالي به ، ويغرق في صمته ازاء دعاويه وأراجيفه. لست أقصد هذا أبدا ، أو شيئا منه ، وانما أطالب بفتح النوافذ الادبية أمام الادب الصهيوني العنصري ليتعرف العربي على عقل العدو وقلبه ، وأحسب أن مثل هذه المعرفة تكون هامة وضرورية لاننا بذلك نتفهم افكار العدو واحاسيسه ، كما أننا بذلك نهيىء الفرصة لكتابنا للرد على الدعاوى الصهيونية ، ليس ردا نكتفي بنشره في صحفنا فحسب ـ فما هذا يجدينا ـ وانما ننشره خارج حدودنا وباللغة التي تتكلمها الشعوب الاخرى ، فمن السذاجة أن نسمع أصواتنا ونعجببها، بينا العالم غافل عنا لا يدري من أمرنا سوى الصورة المسوخة التي يرسمها عنا أدباء صهيون والموالون للصهيونية .

كماان الانفتاح على العالم الخارجي أمر محمود ، والعمل على نشر آدابنا باللغات الاجنبية هو سبيلنا للتحرر من ربقة الاقليمية الادبية والخروج من قمقمناالرهيب الىعالمنا الواسع الرحيب (٢) . وبعضد هذا الرأي الاستاذ عيسى الناعوري في مقاله « دور الاديب العربي في المعركة » (٣) حيث أبرز ضرورة الكتابة للشعوب الاخرى بلغاتها وذلك لكسب الرأي العام العالمي عن طريق كسب ثقته بنا ، وبمساهمتنا في حضارة الانسان المعاصرة . ودلل على ذلك بما قالته شاعرة ايطالية لادباء الاردن : « من منكم كتب لي شيئا أعرف منه قضيته ؟ والناس الاخرون ، الا تفكرون بأن معرفتهم لقضيتكم تفيدكم في كسب العدالة فيها ، انكم تكتبون لشعبكم فقط ، وشعبكم يعيش المأساة التي تعيشون ، ويعرفها كما تعرفونها أنتم ، فهو ليس في حاجة الى أن تظلوا ترددونها على أسماعه بالشعر تارة ، وبالنثر تارة أخرى . الا ترون أنكم تضيعون جهودكم عبثا بينما تظل قضاياكم بعيدة عن أسماع العالم وعن وعي شعوبه ؟ » (٤) .

وهناك نقطة أساسية وهامة ، وهي ماهية الادب العربي النضالي .. كيف يكون ؟ وماذا يكتب ؟ . والحديث هنا واسع ومتعدد ، ومن الممكن للكاتب أن يتبنى أكثر من وجهة نظر في آن واحد . ليس هذا عن بلبلة فكرية أو تيه ثقافي ، وانما لان نضالنا له أكثر من وجه ، وشخصيتنا النضالية ذات سمات متباينة . انبعض الكتاب العرب يدعو الى الكلمة النضالية التي تخلق فدائيا ،والبعض يدعو الى الكلمة الهادئة العاقلة ويرى أنها مدخل الى الموضوعية، وآخرون يدعون الكتاب الى تجاوز آثار النكسة والكتابة عن انسان المستقبل في صورته المشرقة الزاهية ، وهناك دعوات أخرى كثيرة ، وقد تظهر في المستقبل القريب دعوات جديدة . ولست رافضا أية دعوة ، ما دامت نابعة من اخلاص للقضية واسهام بناء في معالجتها. ان كل دعوة تصدر عن اتجاه فكري معين ، الا أنها جميعا تنبع من ماعون النفس العربية التواقة الى النصر والتقدم الحضاري ، ولا يمكن لعربي أن يرفض التقدم ، هدفنا الاسمى .

يرى الذين يدعون الى الكلمة النضالية القوية أن ظروف نضالنا تلح في الدعوة اليها الحاحا شديدا . ويرون أيضا ان الادب النضالي مطلوب وضروري سواء بلغ العمق الفني أم لم يبلغ ، فالكلمة النضالية شيء مجيد يستحق أن نفخر به . وفي تصوري أن هؤلاء الكتاب يطلبون من الادب أن يصنع ثورة ، ويا ليت هذا يكون ! .. فبودنا لو تشتعل الثورة ضد الغاصب في كل مكان .

حقا ، ان الادب النضالي شيء مجيد وضروري . لكن ما المقصود بالادب النضالي ؟ . ان الادب فنونه عديدة ، ولكل فن مجال .. فلا يصح مثلا أن نكتب قصة نضالية بلا أبعاد ودون غوص في اعماق الشخصيات ودوافعها ، اننا بذلك نتردى في السطحية والسذاجة . وخطأ كبير أن تكون وطأة الاحساس بالواجب الوطني وحدها دافعا للكتابة ، بذلك نجني على الادب عموما . فلا يصح أن نرتجل أية شخصيات روائية مثلا دون أن تنضج هوياتهم بعد في خيالنا ثم ندفعهم ليقولوا لنا : « اقتلوا اليهود ، حرروا الارض » . بهذا نجني على القصة وعلى الدراما ، ونجني على أدبنا العربي الذينرجو له أصالة الابداع الفني . ولا يمكن أن يندفع أديب عربي الى الكتابة عن الكفاح المسلح احساسا منه بالقصور فيهذا المجال ، وحرصا منه على تأدية دوره في المعركة . واذا ما عولجت قضيتنا المقدسة بسطحية وسذاجة انسياقا مع الانفعال والتزاما بالواجب ، فقد اسأنا الى أنفسنا والى قضيتنا على المستوى الانساني . ولسنا بهذا ندعوالاديب العربي الى أهمال واجبه وقضيته المقدسة ، وانما نطلب منهالتاني والتروي ، ثم الكتابة بدافع الاصالة الفنية أولا وقبل كل شيء . واذا

(١) غسان كنفاني : في الادب الصهيوني .

(٢) مجلة « الاديب » ـ يونيو ١٩٦٨ ـ انظر مقال « متى يخرج الادب العربي من القمقم » للكاتب .

(٣) مجلة « الاديب » ـ أغسطس ١٩٦٩ ـ ص ٢٣ .

(٤) المصدر السابق ـ ص ٢٣ .

كان لا مفر من حفز الهمم واستثارة النخوة العربية الى القتال فلعل القصيدة مجال رحيب وكذلك المقال الصحفي والحديث الاذاعي او التليفزيوني ، وفي هذا المعنى يقول الاستاذ سلمان حرفوش :« واذا كان الاديب لا يعرف كيف يخلق ، فليس له الا ان يبثنا عواطفه الانسانية المشكورة في مقالة سياسية ، أو أي حديث وجداني لاهب»(٥).

وقد حاول كاتب (٦) أن يدلل على عدم جديتنا في النظر الى خطر اسرائيل ، وعدم تقدير هذا الخطر فاشار الى الروائي نجيب محفوظ كمثال لاديب لم تنعكس قضية فلسطين في أعماله بالرغم من أنه يمثل ضمير العصر العربي الصادق . واذا كان الكاتب يريد أن يقول لنا اننا لم نتمثل قضية فلسطين في ضمائرنا فهذا حق ، ولكنه ليس كل الحق . واذا كنا ندين الادب لانه لم يتناول القضية بجدية واهتمام ، فلنا أيضا أن ندين السياسة العربية والاعلام العربي لانهما المسئولان المباشران عن القضية . ان الادب مسئول غير مباشر . ولا يستطيع الاديب أن يكتب قصة او قصيدة أو مسرحية لدفع قرائه الى خوض المعركة المقدسة وتحرير الارض المغتصبة . ان الادب عظيم التأثير في النفس البشرية ، لكنه ليس سريع الحركة ، ولا انطلب منه أن ينفعل انفعالا فوريا بما تحدثه الاحداث من صدى في نفسه ، وأكرر ثانية أن التأني والتروي هما عماد كل فن أصيل . ولرب قصة فنية أصيلة تفضل عشرات القصص التي تدعو الى الجهاد دعوة مباشرة ، فتحييد القصة بذلك عن طريق الفن الانساني وتتيه في دروب ليست بذات صلة بالفن . أقول هذا مؤكدا على ما قلته سلفا من أن مجالات الابداع متعددة ، وأن الادب ليس شيئا جامدا ، وانما استوعبت فنونه كل شيء ، وبقي علينا أن نتعرف على القالب المناسب حين نريد ان نكتب . فالذي يناسب قرض الشعر لا يجدر بنا أن ننشره كقصة مع ادراكنا التام لقواعد القصة وأصولها ، والذي يجوز للمقال الصحفي المباشر لا ينبغي أن نجيزه لتمثيلية يتخبط أبطالها في عبارات انشائية دونما تركيز على الشخصية وتحديد ملامحها وسماتها .

ويخيل لي أن مساوىء النكسة قد انعكست على الادب العربي امتدادا للاثر الذي أحدثته نكبة ١٩٤٨ ، ذلك في الوقت الذي ننتظر منها أن تكون بمثابة طاقة هائلة تحفز الى خلق أدب عربي انساني . ويرجع ذلك الى الهزة العنيفة التي أحدثتها النكسة ، فدخلت ساحة الادب أقلام كثيرة ظنا منها أنها تلج الى ساحة المعركة ولوجا فعالا ، فكانت بعض الاقلام تطعن كطعنات الخناجر . واكتظت ساحة الادب بكثيرين من أدعيائه ، واذا وجه كاتب لهؤلاء ادانة ما ، صفعوه بكلمات وطنية حادة ، واتهموه بالتقاعس وبانه ليس في مستوى نضالنا القومي .

حقا نحن في حاجة الى كل قلم شريف ، والى كل كلمة تستثير الهمم وتوقظ الغافلين وتدين الخائفين ، لكنا لا نريد أن نجني بهذا على الادب ، وأن يكون الدافع الوطني وحده مبررا لكي ترى النور كل الاعمال الادبية بصرف النظر عما في بعضها من سطحية وسذاجة .

شيء آخر نعزو اليه تخلف أدبنا عن واجباته ومسئولياته ، وهو ايثار بعض الادباء الصمت حتى لا يتورطوا في جدال أو نقاش يؤدي الى اتهامات . وأكاد أجزم بأن الاديب العربي اذا ما خشي الكتابة عن قضية فلسطين وسواها من قضايانا المصيرية تلك الكتابة التي يرضى عنها ، فذلك ناتج عن احساس لديه بانها قضايا سياسية لا ينبغي اقحامها في الادب ، وفي هذا قصور واضح . كما أنه – أي الاديب – قد اعتاد على الاخذ بالرأي السائد دونما محاولة مخلصة لتجاوزه الى ما يراه من جانبه في تشخيص الداء ووصف الدواء ، فذلك يتطلب شجاعة نادرة ما زلنا كعرب نفتقدها ، وهذا أمر مؤسف .

وأشهد أنني كقارىء كدت أصاب بالغثيان ازاء كتابات عربية اكتظت بـ « الكليشيهات » مكرورة ومعروفة لدى الجميع في معالجة قضايا حيوية هامة ، دون محاولة مخلصة في التحليل العلمي ، ودون معاناة فكرية . وواضح من هذا أننا نحمل السياسة أعباء كثيرة علاوة على تمزق أدبنا بين منعطفين : الاول هو الغوص في قضايا ميتافيزيقية قد لا تهم أحدا وقد لا يفهمها أحد ، والثاني هو تبعية الادب للسياسة يلهث وراءها ولا يتمهل ليقول لنا شيئا . ولعل مصدر هذا الضياع الادبي شيء اسمه « الخوف » ، ارث الاستعمار الذي ما زلنا نرسف في أغلاله ، وهذا الخوف هو الذي دعا الاديب غائب طعمة فرمان الى أن يقول : « المطلوب من أديب المعركة أن يتخلى عن هذه الطريقة ، وينظر الى مشكلات الانسان العربي بشجاعة ، ويعالجها بطريقة واقعية ، يترصدها ويتقصاها ، ولا يخاف من ذلك من سيف الجلاد» (٧).

وهناك من الكتاب من يدعو الى الكلمة الهادئة العاقلة ، والالتزام بالموضوعية ، واتباع أسلوب التحليل العلمي في معالجة قضايانا الحيوية . وهي دعوة مستنيرة ينبغي أن نهتم بها ، وصحة هذه الدعوة تنبني على ما قاسيناه من انفعالاتنا المهزوزة وتهويماتنا الضبابية . وفي مجال الدعاية أيضا ، كنا نقيم الدنيا ونقعدها في داخل حدود وطننا توضيحا لقضيتنا بينما لا نفعل شيئا ذا بال في الجانب الدعائي خارج الحدود . فما جدوى الطنطنة ؟ . هل فقدنا قدرتنا على الفهم حتى يلتبس علينا الامر فنظل نثرثر عن عدالة قضيتنا كيما تؤمن جماهيرنا بقضاياها . وكأنها ليست مؤمنة !؟ . واذا كنا لم نتيقن بعد من صحة قضايانا فكيف ندعو العالم الخارجي ان يتكاتف معنا ويشد من أزرنا ؟. حقا نحن في حاجة الى الموضوعية والى الدقة العلمية والى النظرة التحليلية ، فبهذا نتخطى انفعالاتنا ونتجاوز فراغنا الفكري وننتصر على قدرنا الذي أسهمنا نحن في صنعه ثم ارتضينا أحكامه الجائرة !.

(٥) مجلة « الآداب » – ديسمبر ١٩٦٨ – ص ٥ ٤.

(٦) احمد محمد عطية – المصدر السابق – ص ٣١ .

(٧) مجلة « الآداب » – نوفمبر ١٩٦٨ – ص ٤.

هذا الشهر

اعناق الجياد النافرة

ديوان جديد

لصاحب « في شمسي دوار »

الشاعر الطليعي

فواز عيد

منشورات دار الآداب

متى يعود السندباد

احمد الماخذي

السفارة اليمنية في أديس أبابا

في أي أرض يستقر السندباد
متى يعود ؟ فالربيع عاد
تحرسه سحابة من الرماد
نجومه ، تلاله ، انهاره مداد
وفي حقوله يعسكر الكساد
والناس يسألون في الربيع
عن عودة الجوّاب
من مجاهل الصقيع
عن موسم الاعشاب
ويقرعون كل حائط
وكل بابْ
يعوون في الخريف كالذئاب
ويضرعون للسماء .
أن ترجع الكساء للاشجار والسماء
في موسم الجفاف ، والظماء
وكلما جاءت سحابة من البعيد
يهللون بالدعاء والنشيد
يباركون عودة الحياة من جديد
لكن ماردا يشدها بلا حنان
يقذفها مسافة تقاس بالزمان
فتشرئبّ بعد ذلك الرقاب والعيون
الى متاهات الخيال والظنون
بأن يوما ما تعود هذه السحابة
تمسح عن حقولهم ملامح الكآبة
تعيد للاعشاش كل قبرّه
وللغصون كل زهرة مبعثره

ولعل السلاسل التي يصدرها مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية (٨) دليل خير وعلامة تغيير تبيئتها في اتجاهنا الجديد نحو التغيير ، وذلك لان الدراسات التي تنشر في هذه السلاسل تلتزم الموضوعية وتتحرى الدقة وتترصد مصادر العدو ووثائقهوتعمل على تحليلها وفهمها ثم استخلاص النتائج ، وهذا كله جهد محمود ويستحق منا التهنئة والتقدير . واعتقد أن هذه السلاسل تترجم الى اللغات الاجنبية ، واني لارجو أن تتسع دائرة الترجمة ، ومجال التوزيع خارج حدودنا .كما أود أن تتولى أصدار هذه السلاسل هيئة أدبية أخرى متفرغة ، حتى تكون منظمة التحرير خالصة للعمل الفدائي وفيه من أعباء النضال ما يعرفه ويفهمه الجميع .

كما أن هناك دعوة الى تجاوز النكسة بأحزانها وآلامها والكتابة عن انسان المستقبل في صورته المشرقة الزاهية . وهذه الدعوة لا يسلم امرها بسهولة، فكيف نتنصل من واقعنا الاليم لنتبنى في الخيال قصورا وهمية ؟ . ان المستقبل ـ ويجب أن ندرك هذا جيدا ـ لهو من صنع يومنا . واذا كان يومنا من صنع أمسنا ، فأن غدنا يكون من صنع يومنا .. فحلقات التاريخ متماسكة ولا يمكن فصل حلقة عن الاخرى . ان مستقبلنا هو صنيعة حاضرنا ، فعلينا ان ننهض بحاضرنا الاليم ، والا نتجاوزه أهمالا واستهتارا ، وانما نتجاوز أحزانه ونتمسك بسبيل النضال الشريف من أجل قضيتنا العادلة . فلا سبيل لنا الا سبيل الفداء والتضحية ، ولا طريق الا الطريق المخضبة أرضها بدماء شهدائنا ، ولن نرتضي بغير ذلك بديلا . وما أشرفه من طريق وما أنبله من سبيل . ولن تصحو أمتنا العربية من سباتها وتستفيقمن كبوتها الا بالفداء والتضحية ،فتشب عن الطوق أمة عزيزة الجانب موفورة الكرامة تتبين معالم حضارتها ، وتسهم في التقدم الحضاري وتشارك في ركب التطور العلمي .

واذا كنت أؤكد على أهمية الفداء والتضحية فلانهما خلاصنا مما نحن فيه من كبوة وانسحاق . أما أدبنا النضالي فليعبر عنواقعنا دون التزام من جانب أحد أو ادانة أو اتهام ، بل يشترط على الاديب أن يرتفع الى شجاعة رجال النضال ، وان يكون صاحب قلم شريف لا ينحني للزوابع ولا تكسره الاعاصير وانما يزداد صلابة وقوة، ويمتد بجذوره في قلب تربتنا العربية الخصيبة ، ياخذ منها طين البلاء والهموم ويعطيها اشراقة الامل وبراعم خضراء قادرة على البقاء بمرور الايام . كما يطلب من الاديب العربي أن يعبر عن واقعناالمعاش بدافع الاصالة الفنية . فبالاصالة الفنية وحدها يخلق الادب سواء كان نضاليا او انسانيا بالمفهوم العام للكلمة . فأيا كان نوع هذا الادب فهو لازم لنا وضروري لواقعنا المعاش .

القاهرة

حسني سيد لبيب

(٨) من السلاسل التي يصدرها المركز :« أبحاث فلسطينية » و« دراسات فلسطينية » و« كتب فلسطينية » ومجموعة من الخرائط الفلسطينية وبعض النشرات الخاصة .